تفسير القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت
شيخ الجامع الأزهر

سورة هود

— ٢ —

ربط بين هـذا المقال والمقال السابق — الفصل الثانى : (دعوة الإسلام على لسان محمـد صلى الله عليه وآله وسـلم هى دعوته على لسان من كان قبله من الرسل — نوح — هود — صالح — إبراهيم — لوط — شعيب — موسى — تعليق السورة على هـذه القصص السبع : أنباء الغيب التى يقصها القرآن ودلالتها — الظالمون هم الذين يجنون على أنفسهم — سنة الله فى المـكذبين) — تمهيد إجمالى عن الفصل الثالث — والتفصيل للعدد الآتى .

تبين من الكلام على سورة « هود » فى العدد السابق : أن السورة تنقسم باعتبار ما اشتملت عليه من الموضوعات إلى فصول ثلاثة : (الفصل الأول فى تقرير الدعوة المحمدية بأصولها الثلاثة - الفصل الثانى فى تقرير أن هذه الدعوة بأصولها هى دعوة الرسل السابقين - الفصل الثالث فى توجيه الخطاب للنبي وصحبه فى الاستمساك بدعوة الله) .

وانتهى فضيلة الأستاذ الأكبر المغفور له الشيخ محمود شلتوت من عرض الآيات الواردة فى أغراض الفصل الأول مع بيان ما تضمنته هذه الآيات تصريحاً وإشارة ، ثم مهد بذكر ما يتضمنه الفصل الثانى إجمالا .

وهذا هو تفصيل الإجمال كما كتبه فضيلته :

الفصل الثانى : إن هذه الدعوة التى شرحت بأصولها وبأدلتها ونتائجها فى الدنيا والآخرة ، وما كان من إعراض عنها ، هى دعوة الرسل السابقين من مبدأ الخليقة إلى عهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وفى هذا - كما قلنا - تسلية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه كإخوانه السابقين ، وفيه كذلك عظة وذكرى لقومه بما حدث لأسلافهم المتقدمين .

نوح :

ومن هنا ذكرت السورة « نوحا » وما كان من معارضة قومه له ، وسخريتهم به ، وموقف ابنه منه ، وموقفه من ابنه ، وتقرير أن الصلة التى لها قيمتها عند الله ، هى صلة الإيمان لا صلة البنوة ولا صلة الأرحام ، ثم ذكرت ختام القصة بنجاة نوح ومن آمن معه ، وهلاك قومه الذين عاندوه وبغوا على الحق .

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

وفى هذا إشارة إلى أن من الأمم من ذرية نوح من سيكون كالذين أهلكهم الله على عهد نوح ، وقد أرانا التاريخ كثيراً من هذه الأمم بعد نوح عليه السلام .

وفى ختام قصة نوح تعاجل السورة رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بقولها :

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين » .

وهو نوع من الإعجاز فى الإخبار بغيب لا سبيل له ولا لقومه إلى معرفته

إلا عن طريق ربه ، وإلا فى هـذا القرآن ، ثم هو تثبيت وتصبير وإبعاد للحرج واليأس من نفسه ، وتبشير وتطمين بحسن العاقبة لمن ظل متمسكا بتقواه .

هود :

وذكرت « هودا » ورسالته إلى عاد ، وما كان منه من توجيههم إلى ربهم ، وما كان منهم من معارضته ورميـه بالجنون ، وما ختم الله به الأمر بينه وبينهم .

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هـذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعاد قوم هود » .

صالح :

وذكرت « صالحا » وقومه ثمود ، وختمت الأمر فيهم بنجاة صالح ، وأخذ الذين ظلموا بالصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين « كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعداً لثمود » .

إبراهيم :

وذكرت إبراهيم ورسل ربه الذين بشروه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وفى هـذه القصة لم تعرض السورة لموقف إبراهيم من قومه ، ولا موقف قومه منه فيما يختص بالدعوة ، وإنما ذكرت شأناً إلهياً يرشد إلى أن الله فى تصرفه لم يكن مقيداً بمألوف من السنن التى يعرفها النـاس فى الخلق والإيجاد ، وفى هـذا تطمين لحمَلة الحق إذا كانوا قلة أمام الـكثرة المبطلة ، فإن نصرهم مع قلتهم وكثرة المبطلين إن لم يكن شأناً معروفا بين الناس ؛ لـكنه ليس مما تعجز عنه القدرة ، فلا ييأس المحق صاحب القوة المحدودة من نصرته على المبطل صاحب الـكثرة والقوة المرهوبة .

لوط :

وذكرت « لوطا » وما كان من سيئات قومه ، وكيف جعل الله عالى قراهم سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود « مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد » .

وفى هذا الختام هزّ لأعصاب المعارضين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم .

شعيب :

وذكرت « شعيبا » وقومه وما قابلوه به ، وتحذيره إياهم إن استمروا على الكفر والشقاق « أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد » .

وختمت القصة بمثل ما ختمت به قصص السابقين : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

موسى :

ثم ذكرت « موسى » وقومه ، من فرعون وملئه ، وختمت قصتهم بقول الله تعالى :

« يَقْدُمُ قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود ، واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود » .

وفى هذا إشارة إلى أن الأمم باتباعها لزعمائها الفاسدين ؛ لا بد أن تصاب بما يصابون به ، وأن واجب الأمم الحية أن تقف من حكامها الضالين موقف الحزم حتى تسلم من شرهم ، وتقطع صلتها بهم .

* * *

وبعد هذه القصص السبع تذكر السورة تعليقاً عليها بأمور ثلاثة :

أولا : ان هذه أنباء القرى التى أرسلنا إليها رسلنا ، منها قائم يرى قومك آثاره ويمرون عليه فى رحلاتهم ، ومنها حصيد هالك يتبينونه بعد سير فى الأرض ، وتدبر فيما تحمل من آثار ، فليلتفت إلى ذلك قومك ، وليعتبروا بما يرون « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

ثانياً : ان ما أنزلناه بهم من العذاب ماكان إلا جناية ظلمهم على أنفسهم « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب » .

ثالثاً : ان سنة الله فى هؤلاء المكذبين هى سنته النافذة فى الماضين ، وهى هذه لاهوادة فيها ولا مجاملة « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » وجدير بالعقلاء أن يأخذوا من سنة الله بالمكذبين فى الدنيا ، سنته بهم فى الآخرة ، ويعتبروا بها فيحذروا عذاب الآخرة الذى هو أشد وأبقى .

ثم أخذت تصف يوم ذلك العذاب ، وأنه يوم مجموع له الناس ، وأنه يوم مشهود ، وأنه ما يؤخر إلا لأجل معدود ، وأنه يوم تأخذ فيه النفوس حقها حسب أعمالها ، وأن من الناس يومئذ من هم سعداء ، ومنهم من هم أشقياء ، تختم ذلك كله بأن هؤلاء كهؤلاء ، وعبادتهم كعبادتهم ، ومآلهم كمآلهم ، وذلك كله فى قوله تعالى :

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير

مجذوذ ، فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ، ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » .

☆ ☆ ☆

ثم تعود الآيات فتذكر بأن الله قد أعطى موسى الكتاب ، فاختلف فيه قومه ، وأنه لو لا كلمة سبقت من الله ببقائهم مع اختلافهم على كتاب موسى وعلى رسالته ؛ لقضى بينهم كما قضى بين الأنبياء السابقين وقومهم ، ولوقع بهم عذاب الاستئصال ، وذهبوا فى بطون التاريخ ، كما ذهبت الأمم السابقة ، وأن كلا لا بد موفى جزاء عمله ، وذلك كله فى قوله تعالى .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب ، وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير » .

☆ ☆ ☆

وهنا يأتى « الفصل الثالث » ويوجه الخطاب فيه إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

فترسم لهم منهاجا كاملا لا يحتاجون معه فى الحصول على السعادة إلى شىء وراءه ، وقد جاء هذا المنهاج بعد أن صورت الدعوة وذكرت دلائلها ، وقدمت صوره تاريخية واضحة عن عاقبة الذين استقاموا على أمر الله ، والذين انحرفوا عنه .

☆ ☆ ☆

وإلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ، لنعرف تفاصيل هذا المنهاج القويم ؟